الجدل والحجاج في الخطاب القرآنى

(دراسة وصفية تحليلية من خلال سورة الأنعام)

إعداد

د/آسيا إبراهيم دفع الله

أستاذ مساعد قسم اللغة العربية كلية اللغات والعلوم الإنسانية جامعة القصيم

ملخص البحث:

تناول البحث الجدل والحجاج في القرآن الكريم من خلال سورة الأنعام، دراسة وصفية تحليلية الهدف منها الاسهام في تسليط الضوء على ما في القرآن الكريم وتلك السورة خاصة من حجاج.

وبيّن البحث أن مصطلح الجدل والحجاج ذكر لفظا في بعض الآيات، كما جاء ضمنا في أخرى، وهو مرتبط بوقائع ومعارف موضوعية بعيدة عن القائل، وتميز المعجم القرآني بقوته الحجاجية الملزمة ذات الخصائص الاقتضائية. وجاء الحجاج الضمني عن طريق الاستفهام والتلقين وتقرير المصير.

وتنوع الحجاج والجدل في السورة تناولنا منها؛ الاستنتاجي في إثبات البحث والنشور، والحجاج الاستقرائي في التدرج بما يؤمنون لإثبات البعث، والحجاج بالوقائع التاريخية في النظر في آثار الأمم السابقة، والحجاج بالوقائع الاجتماعية السبر ثم التقسيم فيما أحل الله. كما وقفنا عند المجالات التي دار فيها الحجاج منها؛ النظر في مخلوقات الله، وأحوال الناس في الشدائد، وقدرة الله سبحانه وتعالى، وتغمس الدور.

واستعرضنا بعض الحجج والأدلة والأمثلة التي ذكرت لإقحام الخصم بغية الوصول إلى نتيجة قد يقتنع بها المتلقي أو لا يقتنع، وكانت تجمع بين الأدلة الحسية التي يشاهدونا في الموجودات، وغير الحسية التي يعرفونها من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك لتناسب جميع العقول وتتواكب مع سائر العصور والأجيال.نجد في السورة آيات تبين لنا النتيجة التي سوف تكون في نهاية هذا الاحتجاج، وهي بمثابة تسلية للرسول ﷺ حتى لا يرهق نفسه ويحمل نفسه فوق طاقتها.

ومن النتائج التي توصل إليها البحث أن الجمع بين اللفظتين فيه ترجيح لآراء القدماء على أنهما بمعنى واحد، أو يمكن أن تحل اللفظة محل الأخرى، والخطاب القرآني موجه للعامة الناس - حيث ان رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم هي الخاتمة – فلهذا نلحظ في الآيات الاهتمام بالمتلقي الذي وجه الخطاب إليه.

الكلمات المفتاحية : الجدل – الحجاج – القرآن الكريم

Controversy and Argumentation in Qur'anic Discourse (A Descriptive and Analytical Study of Surat Al-An'am)

Abstract of the research:

The research dealt with argumentation and debate in the Holy Quran through Surat Al-An'am, a descriptive and analytical study aimed at contributing to shedding light on the argumentation in the Holy Quran and that Surah in particular.The research showed that the term argumentation and debate was mentioned verbally in some verses, and implicitly in others, and it is linked to objective facts and knowledge far from the speaker, and the Quranic dictionary is distinguished by its binding argumentative strength with necessitating characteristics. Implicit argumentation came through questioning, prompting, and determining fate.The diversity of argumentation and debate in the Surah, we dealt with; deductive in proving research and resurrection, inductive argumentation in the gradualness of what they believe in to prove resurrection, argumentation with historical facts in examining the effects of previous nations, and argumentation with social facts, probing and then dividing what God has permitted. We also stopped at the areas in which the argumentation took place, including examining God's creatures, the conditions of people in adversity, the power of God Almighty, and the immersion of the role.We reviewed some of the arguments, evidence and examples that were mentioned to force the opponent to reach a result that the recipient may or may not be convinced by. They combined the sensory evidence that we see in the existing things, and the non-sensory evidence that they know of the characteristics of the Messenger, may God bless him and grant him peace, to suit all minds and keep pace with all ages and generations.We find in the Surah verses that show us the result that will be at the end of this argument, and they are a form of consolation for the Messenger, may God bless him and grant him peace, so that he does not exhaust himself and burden himself beyond his capacity.Among the results that the research reached is that combining the two words gives preference to the opinions of the ancients that they have one meaning, or one word can replace the other, and the

Qur’anic address is directed to the general public - since the message of the Messenger, may God bless him and grant him peace, is the conclusion - so we notice in the verses the interest in the recipient to whom the address was directed.

Key word: Argumentation - Argumentation - The Holy Quran

المقدمة

جاءت فكرة البحث من التأمل في سورة الأنعام التي تناولها كثير من الباحثين من زوايا عديدة؛ والجديد الذي أردت أن اتناوله في هذا البحث أن السورة جمعت بين ذكر مصطلح الحجاج وأنواعه والنتائج التي ترتبت على هذا الحجاج يوم القيامة؛ ولهذا كان اختياري لعنوان (الجدل والحجاج في القرآن الكريم – دراسة وصفية تحليلية من خلال سورة الأنعام).

وفي تقديري أن المنهج الوصفي التحليلي يتناسب مع تلك الدراسة التي تهدف إلى توضيح الشمول الذي تميزت به سورة الأنعام.

ولكي تكتمل الصورة قسمتُ البحث إلى ثلاث فصول تناولتُ في الفصل الأول: مصطلح الجدل والحجاج، وقسمتُه لمبحثين: المبحث الأول: الآيات التي ورد فيها مصطلح الجدل والحجاج لفظياً. والمبحث الثاني: الآيات التي ظهر فيها الجدل والحجاج ضمنياً. وتناولتُ في الفصل الثاني: التنوع في الجدل والحجاج ومجالاتهما، وقسمته لمبحثين: المبحث الأول: أنواع الجدل والحجاج في سورة الأنعام. والمبحث ثاني: المجالات التي دار فيها الجدل والحجاج. أما الفصل الثالث: فخصصته لعرض نماذج من الأدلة والنتائج، فجاء المبحث الأول: الأدلة والبراهين. والمبحث الثاني: الغاية والنتائج التي ترتبتْ على الحجاج. ثم اتبعتُ البحث بخاتمة عرضت فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث والتوصيات.

أما الأهداف التي يتطلع البحث إليها نابعة من تلك الأسئلة:

1 / لماذا جمعت السورة بين الجدل والحجاج؟

2 / كيف تنوع الحجاج في سورة الأنعام؟

3 / ما المجالات التي دار فيها الجدل؟

4 / ما أنواع الأدلة التي نجدها في الحجاج؟

5 / هل الغاية من الجدل الاقناع دائما؟

ولما كان البحث في الخطاب القرآني ولقداسته؛ فضلت أن يكون اعتمادي على كتب التفاسير وعلوم القرآن، مع الوقوف على بعض المراجع التي تناولت الحجاج في القرآن أهمها كتاب عبد الله صولة، وبعض الدراسات التي تناولت التداولية.

ومن الصعوبات التي واجهت الباحث تشعب الموضوع وطول السورة وثرائها، مع قلت المراجع في الموضوع.

التمهيد

قبل أن نشرع في هذا البحث نقف قليلا مع مصطلحات العنوان لنلقي الضوء على بعض ظلالها؛ ليتسنى لنا معرفة ما يربوا له هذا البحث.

تعريف الجدل لغة:

هو كما جاء في (لسان العرب) " ... جادَلْت الرجل فجَدَلته جَدْلاً أَي غلبته، ورجل جَدِل إذا كان أَقوى في الخِصام، وجادَله أَي خاصمه مُجادلة وجِدالاً والاسم الجَدَل وهو شدَّة الخصومة، وفي الحديث ما أُوتَي الجَدَل قومٌ إلاَّ ضَلُّوا. الجَدَل مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة المناظرة والمخاصمة، والمراد به في الحديث الجَدَلُ على الباطل وطَلَبُ المغالبة به لا إِظهار الحق؛ فإن ذلك محمود لقوله عز وجل وجادلهم بالتي هي أَحسن. ويقال إنه لَجَدِل إذا كان شديد الخِصام وإنه لمجدول وقد جادل، وسورة المُجادَلة سورة قد سمع الله لقوله قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله، وهما يَتَجادلان في ذلك الأَمر. وقوله تعالى ولا جِدال في الحج قال أَبو إِسحق قالوا معناه لا ينبغي للرجل أَن يجادل أَخاه فيخرجه إِلى ما لا ينبغي"1

فالذي نلمسه من (لسان العرب) أن الجدل هو شدة الخصومة ومقابلة الحجة بالحجة. والاستدلال بالحديث لم يكن لحصر الجدل على الباطل فقط بدليل ايراده للآية 125- سورة النحل التي تدل على أن الجدل يستخدم أيضا لإظهار الحق، والمجادلة التي وردت في القرآن الكريم بهذا الاسم؛ فهي شكوى ومطالبة بالحق. والواضح أن المعنى في القوة وفي شدة الخصومة ولم يشترط فيها الحق أو الباطل. أما صاحب (المصباح المنير) فقال بأن الأصل في الجدل يكون في الباطل ثم استخدم بعد ذلك في مقابلة الأدلة للترجيح بينها؛ وذلك في قوله: "جَدِلَ الرَّجُلُ جَدَلًا فَهُوَ جَدِلٌ مِنْ بَابِ تَعِبَ إِذَا اشْتَدَّتْ خُصُومَتُهُ وَجَادَلَ مُجَادَلَةً وَجِدَالًا إِذَا خَاصَمَ بِمَا يَشْغَلُ عَنْ ظُهُورِ الْحَقِّ وَوُضُوحِ الصَّوَابِ هَذَا أَصْلُهُ ثُمَّ اُسْتُعْمِلَ عَلَى لِسَانِ حَمَلَةِ الشَّرْعِ فِي مُقَابَلَةِ الْأَدِلَّةِ لِظُهُورِ أَرْجَحِهَا وَهُوَ مَحْمُودٌ إنْ كَانَ لِلْوُقُوفِ عَلَى الْحَقِّ وَإِلَّا فَمَذْمُومٌ." 2

أما (القاموس المحيط) اكتفى بذكر الشدة في الخصومة والقدرة عليها ولم يتطرق للحق او الباطل.٣ و(مجمع بحار الأنوار) يتأثر بابن منظور في بداية حديثه، ولكن يميل في نهاية حديثه لترجيح ما ذهب إليه المصباح المنير4. ومن هنا نقول إنّ الجدل غلب على إظهار الباطل وإنْ استخدم في إظهار الحق أحيانا. وفي ذلك يقول زيد بن جندب [في بحر البسيط]:

قلْ للمحلّين قد قرتْ عيونُكم ... بِفرقة القوم والبغضاء والهربِ

كنَّا أناساً على دينٍ ففرّقنا ... طولُ الجدالِ وخلطُ الجدِّ باللعبِ

ما كان أغنى رجالاً ضلَّ سعيهم ... عن الجدالِ وأغناهمْ عن الخطبِ٥

تعريف الحجاج لغة:

جاء في تعريف مادته "... والحُجَّة البُرْهان وقيل الحُجَّة ما دُوفِعَ به الخصم وقال الأَزهري الحُجَّة الوجه الذي يكون به الظَّفَرُ عند الخصومة وهو رجل مِحْجاجٌ أَي جَدِلٌ والتَّحاجُّ التَّخاصُم وجمع الحُجَّةِ حُجَجٌ وحِجاجٌ وحاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجاً نازعه الحُجَّةَ وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً غلبه على حُجَّتِه وفي الحديث فَحَجَّ آدمُ موسى أَي غَلَبَه بالحُجَّة واحْتَجَّ بالشيءِ اتخذه حُجَّة قال الأَزهري إنما سميت حُجَّة لأَنها تُحَجُّ أَي تقتصد لأَن القصد لها وإِليها وكذلك مَحَجَّة الطريق هي المَقْصِدُ والمَسْلَكُ وفي حديث الدجال إِن يَخْرُجْ وأَنا فيكم فأَنا حَجِيجُه أَي مُحاجُّهُ ومُغالِبُه بإِظهار الحُجَّة عليه والحُجَّةُ الدليل والبرهان" 6 فالذي يتضح من تعريف اللسان أن الحجاج مقارعة الخصم بالدليل والبرهان والانتصار عليه، فالحجة هي المقصد إلى ذلك، واتفق معه في أن مقصد الحجة الانتصار المصباح المنير والقاموس المحيط 7.

فاتفق الجميع على حصر الحُجة بضم الحاء في الدليل والبرهان. والمحجاج لا بد أنْ يتفوق على محجاجه لقوَّة أدلَّته؛ مما يجعلنا نميل إلى أنَّ الحجاج يكون دائما في الحق، أما الجدل فيكون في الحق والباطل. ويقول عبد الله صولة "أنَّ الجامع بين معنيي اللفظين هو المخاصمة لكنَّها في الحجاج قائمة على الباطل دائماً كما أشار إلى ذلك ابن عاشور معتمداً مدونة القرآن، في حين أنَّ الجدل منه ما هو حق ومنه ما هو باطل كما يفهم من شاهدي القرآن المذكورين ضمن قول ابن عاشور- (يجادلنا في قوم لوط)، (ولا جدال في الحج) - والطريف أنَّ هذا هو على الإجمال المعنى الذي للجدل في علم المنطق" 8

ومن هنا نقول إن الجدل أشمل من الحجاج؛ لأن الجدل يكون في الحق وفي الباطل، ولكن أصبح غالبا في الباطل، أما الحجاج فلا يكون إلا في الحق ولا نسمي المخاصمة في الباطل حجاجاً.

أما الحجاج اصطلاحاً فهو "مجموعة من النظريات الحديثة والمعاصرة ومن بينها: الحجاج الجدلي، والنظرية الكلاسكية في الحجاج البلاغي مع أرسطو، والنظرية الجديدة في الحجاج البلاغي مع الأرسطيين الجدد كشايم بيرلمان وأولبريخث تيتيكا، ونظرية الحجاج اللغوي مع أنسكومبر وأوزوالد دوكرو، ونظرية الحجاج الخطابي مع روث أوموسي وميشيل مايير وغيرهما، ونظرية الحجاج المنطقي الطبيعي مع جان بليز غرايس، ونظرية الحجاج التداولي المرتبطة بأفعال الكلام والاستلزام الحواري." 9 والأخيرة هي النظرية المعاصرة التي تبناها بعض المستشرقين وكثر تداولها في المشرق العربي؛ فهي تدخل في علم اللغة التداولي. وجاء في التداولية " قول د. عبد الرحمن الجمهور: "تعنى التداولية بدراسة اللغة على المستوى الوظيفي، أي أنها تحاول شرح البنى اللغوية من خلال العناصر غير اللغوية المؤثرة فيها. وبعبارة أخرى، فهي لا تقوم بفحص الخواص القواعدية (من أصوات وصرف ونحو ودلالات معجمية) للخطاب اللغوي، ولكنها تفحص عناصر السياق التي تقوم عليها العلاقة بين المرسل والمستقبل داخل نظام لغوي محدد" 10

تعريف سورة الأنعام:

جمعتْ السورة جميع المخلوقاتِ وما يتعلق بها، وما يرجع إليها؛ فظهر بذلك مناسبة افتتاح السور المكية بها، وتقديمها على ما تقدم نزوله منها فأصبحتْ في جمعها الأصول والعلوم والمصالح الدنيوية نظير صورة البقرة في جمعها العلوم والمصالح الدينية وما ذكر فيها من العبادات المحضة، فعلى سبيل الإيجاز والإيماء كنظير ما وقع في البقرة من علوم بدء الخلق ونحوه، فإنه على سبيل الاختصار والإشارة. 11

"قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذِهِ السُّورَةُ أَصْلٌ فِي مُحَاجَّةِ الْمُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُبْتَدِعِينَ وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَهَذَا يَقْتَضِي إِنْزَالَهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً لِأَنَّهَا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ مِنَ الْحُجَّةِ وَإِنْ تَصَرَّفَ ذَلِكَ بِوُجُوهٍ كَثِيرَةٍ وَعَلَيْهَا بَنَى الْمُتَكَلِّمُونَ أُصُولَ الدِّينِ لِأَنَّ فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ تَرُدُّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ دُونَ السُّوَرِ الَّتِي تَذْكُرُ ...". 12 والمتأمل في السورة الكريمة وما اشتملت عليه من حُجَجٍ يَلْحَظُ التنوع في الحوار والتفنن في الأساليب بما يتلاءم مع تنوع الناس وتفاوتِ مداركهم، ففيهم العاميُّ وفيهم العالم، وفيهم من له عناية بعلم من العلوم أو فن من الفنون، فجاء الخطاب في السورة متنوعاً لمراعاة تنوع المخاطبين، والمحاور الفطن يعرف من يحاوره، وبالتالي يعرف الطريقة التي ينبغي له أنْ يناقشه بها ويحاوره. 13

تعريف الخطاب القرآني: هو متنوع فيه الحوار بأنواعه، والسرد، والقصص، والوصايا، والمثل، وغيرها. تلك هي المصطلحات التي ظهرت في عنوان البحث، عرفنا بها حتى يتبين للقارئ الهدف الذي يرنو إليه هذا البحث. وآمل أن يوفقني الله في تتبع بعض الومضات التي اشتملت عليها تلك السورة.

الفصل الأول: مصطلح الجدل والحجاج

1/ الآيات التي ظهر فيها مصطلح الجدل والحجاج لفظيا:

في البحث في سورة الأنعام عن لفظة لها علاقة بمادة (جدل)؛ وجدنا لفظة (يجادل) التي وردت في الآية 25 والآية 121، فكان الجدال في الآية 25 عن صدق الرسول ﷺ فيما جاء به؛ قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنعام: 25]

فظاهر الآية أنَّهم - أهل مكة الذين كذبوا بالآيات - يستمعون لرسول ﷺ ولا يعون ما قال لأنَّ الله - سبحانه وتعالى - لضلالهم غطَّى على قلوبهم، بعد أنْ رأى تعنّتهم وانصرافهم عن الآيات الكونية الواضحة؛ فجاء في تفسير القرطبي "قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِها) أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِنَادِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا الْقَمَرَ مُنْشَقًّا قَالُوا: سِحْرٌ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ - عز وجل - بردّهم الآيات بغير حجة". 14

وورد في التفسير أيضاً إنّ جدالهم كان في تحريم الميتة؛ "قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ) مُجَادَلَتُهُمْ قَوْلُهُمْ: تَأْكُلُونَ مَا قَتَلْتُمْ، وَلَا تَأْكُلُونَ مَا قَتَلَ اللَّهُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ." يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا" يَعْنِي قُرَيْشًا، قَالَ ابْنُ عباس: قالوا للنضر بن الحرث: مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: أَرَى تَحْرِيكَ شَفَتَيْهِ وَمَا يَقُولُ إِلَّا أَسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ مِثْلَ مَا أُحَدِّثُكُمْ عَنِ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، وَكَانَ النَّضْرُ صَاحِبَ قَصَصٍ وَأَسْفَارٍ، فَسَمِعَ أَقَاصِيصَ فِي دِيَارِ الْعَجَمِ مِثْلَ قِصَّةِ رُسْتُمَ وَاسْفَنْدِيَارَ فَكَانَ يُحَدِّثُهُمْ". 15

فظهرت لفظة الجدل هنا في الباطل، وهذا يناسب ما ظهر لنا في التعريف من ورود لفظة الجدل مع الباطل؛ وهو يوافق ما ذهب إليه كتاب الأنوار السابق.

وإذا نظرنا للآية من وجهة نظر التداولين نقف عند عوامل الشخص والمكان والزمان فنستطيع أن نقول الخطاب فيها غير موسوم؛ لأنَّه "متصلاً بوقائع ومعارف موضوعية بعيدة عن القائل، وعندئذ يكون غير موسوم".16 كما نلحظ في المعجم القرآني قوّته الحجاجية الملزمة لأنّ الكلمات التي يتكون منها كثيراً ما تكون ذات خصائص اقتضائية وتقويمية معاً. ويبدو هذا على وجه الخصوص في أقسام ثلاثة من أقسام هذا المعجم؛ والتي نجد منها القسم الثاني المتعلق بأعداء الرسالة المحمدية مثل (الكافرون) و(الظالمون) و(الضالون) و(الفاسقون) وغيرها، وتكمن طاقتها الحجاجية في أنّها تضمن قد أنعم الله عليهم نعمة ما أو نعم ما وهذه النعمة هي الرسالة المحمدية وهو المقتضى المعجمي. 17

أما الآية 121 فدار الجدل حول تحريم الميتة. قال تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام: 121]. فيتضح لنا أنْ الجدل في الموضعين خاص بتحريم الميتة، وهو في الثاني واضح وصريح، أما في الأولى فظهر لنا في تفسير الآية. ويقول السيوطي في ذلك: "ساق هذه السورة لبيان ما حرّمه الكفار في صنيعهم، فأتى به على الوجه الأبْيَنْ والنمط الأكمل، ثم جادلهم فيه، وأقام الدلائل على بطلانه، وعارضهم وناقضهم، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه القصة فكانت هذه السورة شرحاً لما تضمنته المائدة ... على سبيل الإجمال، وتفصيلاً وبسطاً، وإتماماً وإطناباً وافتتحت بذكر الخلق والملك، لأنَّ الخالق والمالك هو الذي له التصرف في ملكه، ومخلوقاته، إباحة ومنعاً، وتحريماً وتحليلاً، "18

أما مادة (حجج) فوردت مرتين في الآية 80، بلفظة (حاجَّه، تحاجُّون) قال تعالى: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} [الأنعام: 80]، وجاء في تفسير الآية جادله قومه ... مما يدل على نظرة المفسِّرين واحدة للمصطلحين. وكان الجدال أو الحجاج في توحيد الله بالعبادة. وجاء في تفسير القرطبي: "قوله تعالى: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ} حاجوه في توحيد الله. {قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ} قرأ نافع بتخفيف النون، وشدد النون الباقون ... قوله تعالى: {وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ} أي لأنّه لا ينفع ولا يضر وكانوا خوفوه بكثرة آلهتهم إلا أنْ يحييه الله ويقدره فيخاف ضرره حينئذ؛ وهو معنى قوله: {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً} أي إلا أنْ يشاء أنْ يلحقني شيء منْ المكروه بذنب عملته فتتم مشيئته. وهذا استثناء ليس منْ الأول". 19 ونستطيع أنْ نقول على حجاج أبينا إبراهيم أنه موسوم؛ "أي أنَّه يتصل بفاعل يتجلى فيه معبراً عن رأيه أو وجهة نظره، مشيراً إلى تجربة أو حدث متعلق به ذاته، وعندئذ يصبح موسوما". 20

وردت أيضا بلفظة (حُجَة) في موضعين: أحدهما في الآية 83 في قوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: 83] "قوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ} تلك إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة. وقال مجاهد: هي قوله: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ}. وقيل: حجَّته عليهم أنّهم لما قالوا له: أما تخاف أنْ تخبلك آلهتنا لسبك إياها؟ قال لهم: أفلا تخافون أنتم منها إذ سوَّيتم بين الصغير والكبير في العبادة والتعظيم؛ فيغضب الكبير فيخبلكم؟". ٢١ فنفت تلك الآية صفة الوسم التي وجدناها في الآية السابقة، وأثبتْ أنْ جميع حججه عليه السلام من الله - سبحانه وتعالى - فهي غير موسومة بوجهة نظره الشخصية. ونجد من الخصائص الاقتضائية والتقويمية معا؛ القسم الأول المتعلق بأسماء الله الحسنى مثل (الرحمن) و(الرحيم) وغيرها والقسم الثالث المتعلق بمتّبعيها مثل (المؤمنون) و(الذين آمنوا). 22

والموضع الثاني في الآية 149 قال تعالى: {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنعام: 149] "قوله تعالى: {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} أي التي تقطع عذر المحجوج، وتزيل الشك عمّنْ نظر فيها. فحُجَّته البالغة على هذا تبيينه أنَّه الواحد، وإرساله الرسل والأنبياء؛ فبيّن التوحيد بالنظر في المخلوقات، وأيّد الرسل بالمعجزات، ولزم أمره كل مكلف. فأما علمه وإرادته وكلامه فغيب لا يطلع عليه العبد، إلا من ارتضى من رسول" حيث أثبت الحجّة لله الذي بيده كلّ الأمور". 23 وهذا أقصى درجات الموضوعية؛ "فالخطاب المباشر: هو الذي يتم فيه إدخال عبارة ما لقائل ما في صيغة الخطاب بشكل مباشر، ويعد هذا في نظرهم أقصى درجات الموضوعية؛ أي بقدر ما يلتزم عموما بالنقل الحرفي دون تحريف".24

2/ الآيات التي ظهر فيها الجدل والحجاج ضمنيا:

ورد الجدل ضمنياً في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ} [الأنعام: 2] قَوْلُهُ تَعَالَى: (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) ابْتِدَاءٌ وَخَبَرٌ: أَيْ تَشُكُّونَ فِي أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَقِيلَ: تُمَارُونَ فِي ذَلِكَ أَيْ تُجَادِلُونَ جِدَالَ الشَّاكِّينَ وَالتَّمَارِي الْمُجَادَلَةُ عَلَى مَذْهَبِ الشَّكِّ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى:" أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى" [النجم: 12].25

أما الحجاج الضمني فجاء بطرق عديدة، منها:

أ/ الحجاج الضمني عن طريق الاستفهام:

قال تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [الأنعام: 6] "{أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ} ثم قال {مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ} كأنّه أخبر النبي ﷺ ثمّ خاطبه معهم كما قال {حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم} فجاء بلفظ الغائب وهو يخاطب لأنّه هو المخاطب". 26 ويظهر الحجاج في لفت أنظارهم إلى تلك الآيات؛ أنْ ينظروا إلى نهاية هؤلاء القوم الذين كانوا مِنْ صفتهم كذا وكذا، فهذا مظهر مِنْ مظاهر الاحتجاج الضمني. ويقول القرطبي: "قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ) " كَمْ" فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِأَهْلَكْنَا لَا بِقَوْلِهِ" أَلَمْ يَرَوْا" لِأَنَّ لَفْظَ الِاسْتِفْهَامِ لَا يَعْمَلُ فِيهِ مَا قَبْلَهُ، وَإِنَّمَا يَعْمَلُ فِيهِ مَا بَعْدَهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ لَهُ صَدْرَ الْكَلَامِ. وَالْمَعْنَى: أَلَا يَعْتَبِرُونَ بِمَنْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ لِتَكْذِيبِهِمْ أَنْبِيَاءَهُمْ أَيِ أَلَمْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ. وَالْقَرْنُ الْأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ. وَالْجَمْعُ الْقُرُونُ، قَالَ الشَّاعِرُ [من الطويل]:

إِذَا ذَهَبَ الْقَرْنُ الَّذِي كُنْتَ فِيهِمُ ... وَخُلِّفْتَ في قرنٍ فأنت غريبُ". 27

ب/ الحجاج الضمني عن طريق التلقين بفعل الأمر قل:

قال تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: 14]

"وقال {أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} على النعت. وقال بعضهم {فاطرُ} بالرفع على الابتداء أيْ: هُوَ فاطرُ. وقال بعضهم {وهو يُطْعِمُ ولا يَطْعَم} وقال بعضهم {ولا يُطْعَمُ} و {يَطْعَمُ} هو الوجه، لأَنَّكَ إنَّما تقول: "هُوَ يُطْعَمُ" لمن يَطْعَمُ فتخبر أنَّهُ لا يأكل شيئا. وإنّما تقرأ {يُطْعَمُ} لاجتماع الناس عليها. وقال {إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ} أي: وقيل لي: "لاَ تَكُونَنَّ". وصارت {أُمِرْتُ} بَدَلاً من ذلك لأنه حين قال {أُمِرْتُ} قد أخبر أنَّهُ قد قيل له".28

فنجد الاستفهام جاء مصحوباً بفعل الأمر (قل)، ثمّ ذكر آيتين من آيات الله سبحانه وتعالى الأولى: فاطر السماوات والأرض، والثانية: يُطْعِم ولا يُطْعَم. وبناءً على ذلك أمر النبي ﷺ أنْ يكون أول مَنْ أسلم ولا يكون مِنْ المشركين. ومِنْ الحجاج الضمني أيضا قوله تعالى: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام: 145]؛ "فجاء الأمر بتبين

ما حرمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ من المأكولات، والحجاج هنا في أنّهم يحرمون ما أحل الله افتراء على الله. ثم بيَّنتْ الآيات التالية ما حرّم بني إسرائيل وتعليل تحريمه قال تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَآ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلك جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ}. ويسترسل في هذا الأمر ـ ممّا يدل على كثرة جدالهم فيه ـ في قوله تعالى: {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام ١٥٠].29 وجاء في تفسير القرطبي: "قوله تعالى: {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ} أي قل لهؤلاء المشركين أحضروا شهداءكم على أنّ الله حرم ما حرمتم. و{هَلُمَّ} كلمة دعوة إلى شيء، ويستوي فيه الواحد والجماعة والذكر والأنثى عند أهل الحجاز. فالحجاج يتطلب أدلة وبراهين لذلك ألزمهم القرآن الحُجّة".30

ج/ الحجاج الضمني بتقرير مصيرهم يوم القيامة:

قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} [الأنعام: 30، 31] "... لأنّهم لم يتمنوا الإيمان إنّما تمنوا الرد وأخبروا أنّهم لا يكذبون ويكونون مِنْ المؤمنين".31 ونجده في الموضعين يلفت القرآن نظرنا إلى حال المشركين يوم القيامة؛ وبه تكتمل الحلقات الثلاث ـ الماضي (ما حدث للأمم السابقة)، والحاضر (أمر النبي ﷺ بالإيمان)، والمستقبل (ما يفعلونه يوم القيامة) ـ التي تبين التنوع في الحجاج؛ فاعتبر أيها الإنسان بأيُّهم شئت. وهذا ما سنفصله في الفصل الثاني إن شاء الله.

الفصل الثاني: التنوع في الجدل والحجاج ومجالاتهما

1/ أنواع الحجاج والجدل في سورة الأنعام

نجد كثير من كتب التفاسير التي اطلعتُ عليها، تشير إلى أنّ سورة الأنعام من أول آية إلى نهاية السورة هي بسط للحجج والبراهين التي وجهها القرآن الكريم للمعارضين مِنْ أصحاب الملل المختلفة. وقد وجّه الخطاب لرسول ﷺ في مواضع كثير بلفظ (قل) ويكون المراد تبين الحجج والبراهين للمعاندين والمشركين، كما وجّه الخطاب في بعض الأحيان إلى المعارضين مباشرة ويكون المراد لفت أنظارهم إلى الحجج الواضحة التي يكون في انكارها جحودا لله سبحانه وتعالى؛ ويمكن تصنيف الحجج الفلسفية إلى ثلاث حجج رئيسية تتفرّع بدورها إلى حجج فرعية وهي: الحجج المنطقية (ومنها الاستدلال الاستنباطي، والاستقرائي، والاستدلال بالمماثلة، وبالخلف، وبالمثال)، والحجج البلاغية (ومنها الاستعارة، المجاز، التشبيه والتمثيل) والحجج الواقعية (منها حجة السلطة، الوقائع الاجتماعية والتاريخية). وسوف نقف عند بعضها:

أ / الحجاج الاستنتاجي في إثبات البحث والنشور:

هو العملية الذهنية التي يستخلص بها استخلاصاً دقيقاً، ويعتمد على الانتقال مِنْ مقدمات تؤدي بالضرورة إلى نتيجة منطقية؛ أي أنَّه إذا كانت المقدمات صحيحة وصيغ الاستدلال سليمة، فإنَّ النتيجة تكون صحيحة أيضاً. فقول الله جلّ وعلا: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ} [الأنعام: 2]، فالآية الأولى من السورة كانت تتحدث عن إثبات الألوهية ومِنْ ثَمَّ انتقلتْ الآية الثانية إلى إثبات غرضٍ آخر مما يتعلق بعقائد الناس؛ وهو البعث والنشور، انتقال إلى غرض تُريد السورة إثباته وإقامة الحُجة فيه على أهل الإشراك في البعث والنشور، ويكمل ذلك في الآية الثالثة التي تبيّن كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات. قال تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [الأنعام:3] 32 "... فإنَّ الآيتين المتقدمتين يدلّان على كمال القدرة، وهذه الآية تدل على كمال العلم وحينئذٍ يكمل العلم بالصفات المعتبرة في حصول الإلهية، وإنْ قلنا: المقصود مِنْ الآية المتقدمة إقامة الدلالة على صحة المعاد، فالمقصود مِنْ هذه الآية تكميل ذلك البيان، وذلك لأنَّ منكري المعاد إنَّما أنكروه لأمرين:

أحدهما: أنَّهم يعتقدون أنَّ المؤثر في حدوث بدن الإنسان هو امتزاج الطبائع وينكرون أنْ يكون المؤثر فيه قادراً مختاراً.

والثاني: أنهم يسلمون ذلك إلا أنَّهم يقولون إنَّه غير عالم بالجزئيات فلا يمكنه تمييز المطيع مِنْ العاصي، ولا تمييز أجزاء بدن زيد عن أجزاء بدن عمرو ثُمَّ إنَّه تعالى أثبت بالآيتين المتقدمتين كونه تعالى قادراً ومختاراً لا علة موجبة، وأثبت بهذه الآية كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات، وحينئذٍ تبطل جميع الشبهات التي عليها مدار القول بإنكار المعاد، وصحة الحشر والنشر".33

ب / الحجاج الاستقرائي في التدرج بما يؤمنون لإثبات البعث:

وهو أن تتصفح جزئيات كثيرة داخلة تحت معنى كلي، حتى إذا وجدت حكما في تلك الجزئيات حكمت على ذلك الكلي به. قال تعالى: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: 12]

؛ وهذا احتجاج آخر حيث أمرهم في الأول أنْ يسافر سفراً مندوباً للنظر، أما في تلك الآية فطلب مِنْ الرسول ﷺ أنْ يوجّه لهم سؤالاً صريحاً؛ لأنَّ مشركي مكة ينكرون البعث ولا ينكون الخالق. 34

ج / الحجاج بالوقائع التاريخية في النظر في آثار الأمم السابقة:

قال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الأنعام: 11] قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ) أَيْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُسْتَهْزِئِينَ: سَافِرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا وَاسْتَخْبِرُوا لِتَعْرِفُوا مَا حَلَّ بِالْكَفَرَةِ قَبْلَكُمْ مِنَ الْعِقَابِ وَأَلِيمِ الْعَذَابِ وهذا السفر مندوب إليه إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار مَنْ خلا مِنْ الأمم وأهل الديار، والعاقبة آخر الأمر. 35

وقد ورد بلفظه في القرآن الكريم في أربعة مواضع؛ النمل ـ آية 27، والعنكبوت ـ آية 29، الروم ـ آية 30. كما وجدناه بلفظ الاستنكار في قوله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [الأنعام: 6]. فهذا من أكثر الأنواع ورودا في القرآن الكريم؛ إذ يوجّههم إلى النظر في آثار الأمم السابقة.

د / الحجاج بالوقائع الاجتماعية السبر ثُمَّ التقسيم فيما أحلّ الله:

مِنْ أنواع الحجاج التي نجدها في السورة لا في مجال التصديق والتكذيب للدعوة، وإنَّما في مجال حياتهم الاجتماعية وما تعارفوا عليه، قال تعالى: {وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: 138]

أراد الله بهذه الآية أنْ يُبطل ما ذهبوا إليه فجاءهم بما يُسمى بالسبر ثُمَّ التقسيم؛ حيث يحرمون أكل بعض الأنعام لفئة معيّنة، كما يحرمون ركوب بعضها؛ فهذا يدل على أنْ الجدل لم ينحصر على تصديق الرسول فقط، وإنَّما وجدناه في تعاملاتهم. ثُمَّ تأتي الحُجَّة مِنْ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليبطل هذا التحريم الذي يسيرون فيه على هواهم في قوله تعالى: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأنعام: 143] ويكون التساؤل مِنْ أين أتيّتم بهذا التحريم؟ وما العلم الذي استندتم عليه؟ 36 وقد صنفه السيوطي مِنْ أنواع الجدل حيث نجد القدماء يستخدمون الجدل والحجاج بمعني واحد. 37

هـ / الحجاج العاطفي بتبيّن المؤمنين ومكانتهم:

قال تعالى:{وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام: 54، 55]؛ فهذه الآية تبيّن للمؤمنين أنَّ الإيمان لا يعني العصمة مِنْ الخطأ، وإنَّما مع الإيمان يذنب العبد ويرتكب الأخطاء ولكنَّ الله غفور رحيم لمَنْ يتوب ويرجع ، ويكون فيه أيضا رداً على مَنْ عنده علم مِنْ الكتاب ويستنكر ارتكاب المؤمنين للذنوب. والذي يدعم ما ذهبنا إليه قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}.38

2/ المجالات التي دار فيها الحجاج

المجال الأول: النظر في مخلوقات الله:

{وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام: 38]؛ فالسورة توجّهنا إلى النظر في مخلوقات الله - سبحانه وتعالى - على الأرض التي تعيش في جماعات؛ مثل النّمل والقرود وغيرها مِنْ حشرات أو حيوانات؛ فالدابّة كلّ ما يدبُّ ويمشي. وكذلك المخلوقات التي تطير بأجنحتها سواء أكانت حيوانات أو حشرات ويدخل فيها النّحل والخفاش وأنواع الطيور المختلفة. ولمّا قدّم الله أنَّ الكفار يرجعون إليه ويحشرون بيَّن بعده أنَّ الدواب والطير أمم أمثالهم في أنَّهم يحشرون. والمقصود بيان أنَّ الحشر والبعث كما هو حاصل في الناس حاصل في البهائم. 39

المجال الثاني: أحوال الناس في الشدائد:

يلفت القرآن نظرنا لذلك كثيراً؛ قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الأنعام: 40]؛ فهذا الذي بعد التاء من قوله: {أَرَأَيْتَكُم} إنَّما جاء للمخاطبة. وترك التاء مفتوحة كما كانت للواحد، وهي مثل كاف "رُوَيْدَكَ زَيْداً" إذا قالت: أَرْوِدْ زَيْداً". فهذه الكاف ليس لها موضع فتسمى بجر ولا رفع ولا نصب.40، قوله: أرأيتكم الذي هو بمعنى التقرير. فتقدير الجواب: إنْ كنتم صادقين فأنتم مقرون بأنَّكم لا تدعون غير الله. ذكرّهم في هذه الآية وألجأهم إلى النظر ليعلموا أنَّه إذا أراد الله عذابهم لا تستطيع آلهتهم دفعه عنهم، فهم إنْ توخوا الصدق في الخبر عن هذا المستقبل أعادوا التأمّل فلا يسعهم إلّا الاعتراف بأنّ الله إذا شاء شيئاً لا يدفعه غيره إلّا بمشيئته، لأنَّهم يعترفون بأنْ الأصنام إنَّما تقرّبهم إلى الله زلفى، فإذا صدقوا وقالوا: أندعو الله، فقد قامت الحُجّة عليهم مِنْ الآن؛ لأنّ مَنْ لا يغني في بعض الشدائد لا ينبغي الاعتماد عليه في بعض آخر. ولذلك كان موقع (بلْ إياه تدعون) عقب هذا الاستفهام موقع النتيجة للاستدلال. فحرف (بلْ) لإبطال دعوة غير الله. أي فأنا أجيب عنكم بأنَّكم لا تدعون إلا الله. ووجّه تولي الجواب عنهم مِنْ السائل نفسه أنَّ هذا الجواب لمَّا كان لا يسع المسؤول إلّا إقراره صحّ أنْ يتولى السائل الجواب عنه. 41

المجال الثالث: قدرة الله سبحانه وتعالى:

{قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [الأنعام: 65]؛ وقال {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً} لأنها من "لَبَسَ" "يَلْبِسُ" "لَبْساً"؛ فهذا مجال غيبي بالنسبة للإنسان الجاحد؛ فقدرة الله على إنزال العذاب كما حدث للأمم السابقة، أو يبتليكم بمقاتلة بعضكم بعضاً. فعند الشدائد يضرع الناس إلى الله سبحانه وتعالى، والواقع يؤكد ذلك، ثُمَّ ما أنْ تنكشف الغمّة إلّا ويعود الإنسان إلى ما كان عليه. 42

ومع قدرة الله سبحانه وتعالى نجد امتلاكه لجميع ما في الكون، قال تعالى: (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ) أَيْ ثَبَتَ، وَهَذَا احْتِجَاجٌ عَلَيْهِمْ أَيْضًا. وَقِيلَ: نَزَلَتِ الْآيَةُ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: عَلِمْنَا أَنَّهُ مَا يَحْمِلُكَ عَلَى مَا تَفْعَلُ إِلَّا الْحَاجَةُ، فَنَحْنُ نَجْمَعُ لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَصِيرَ أَغْنَانَا، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَخْبِرْهُمْ أَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ لِلَّهِ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُغْنِيَنِي. وَ (سَكَنَ) مَعْنَاهُ هَدَأَ وَاسْتَقَرَّ، وَالْمُرَادُ مَا سَكَنَ وَمَا تَحَرَّكَ، فَحُذِفَ لِعِلْمِ السَّامِعِ. وَقِيلَ: خَصَّ السَّاكِنَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ مَا يَعُمُّهُ السُّكُونُ أَكْثَرُ مِمَّا تَعُمُّهُ الْحَرَكَةُ. وَقِيلَ الْمَعْنَى مَا خَلَقَ، فَهُوَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ مُتَحَرِّكِهَا وَسَاكِنِهَا، فَإِنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ،

وَعَلَى هَذَا فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالسُّكُونِ ضِدَّ الْحَرَكَةِ، بَلِ الْمُرَادُ الْخَلْقُ، وَهَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ، لِأَنَّهُ يَجْمَعُ شَتَاتَ الْأَقْوَالِ. (وَهُوَ السَّمِيعُ) لأصواتهم (الْعَلِيمُ) بأسرارهم.43

المجال الرابع : تغمّس الدور:

ونجد في حجاج أبونا إبراهيم - عليه السلام - مجال آخر مِنْ مجالات الاحتجاج وهو تغمّس الدور؛ قال تعالى: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هذا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ} [الأنعام: 76]؛ {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ} وقال بعضهم {أَجَنَّ}. وقال الشاعر: [من الطويل]:

فَلَمّا أَجَنَّ اللَّيْلُ بِتْنا كَأَنَّنا * على كَثْرَةِ الأَعْداءِ مُحْتَرِسَانِ

والأرجح أنَّ قول إبراهيم - عليه السلام - على سبيل الاستفهام الانكاري، ولكن ظاهر الآيات أنَّه أراد أنْ تغمّس هذا الدور والسير مع تلك الضلالات التي يعبدونها ثُمَّ يبطلها بعد ذلك واحداً واحداً مفنداً بطلانها (لا أحب الآفلين).

«وأثبت إبراهيم لقومه بذلك أن الله المعبود: يجب أن يكون أكبر من كل شيء، وأنَّه يجب ألّا يطرأ عليه التغير، ولا يجوز له الأفول حينذاك انتقل إبراهيم مِنْ الاستدلال إلى التقرير، ومِنْ الاستقراء إلى التوثيق والتثبت؛ وواجّه قومه بما يجب أنْ يواجههم به؛ قائماً بالدعوة المطلوبة منه والمرسل بها {قَالَ يقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} به الله تعالى في العبادة»44

الفصل الثالث: نماذج من الأدلة والنتائج

1/ الأدلة والبراهين.

ينبني الحجاج في طابعه العام على طرح الدعوى والدعوى المضادة واستعراض الحجج والأدلة والأمثلة لإقحام الخصم بغية الوصول إلى نتيجة قد يقتنع بها المتلقي أو لا يقتنع. كما يستند الحجاج إلى مجموعة مِنْ الآليات الاستدلالية وأساليب التفسير والبرهنة، مثل: أسلوب التعريف، وأسلوب الوصف، وأسلوب السرد والوقائع، وأسلوب الشرط والافتراض، وأسلوب التمثيل، وأسلوب المقاربة، وأسلوب التقويم والحكم، دون أنْ ننسى بعض الآليات الحجاجية الأخرى، مثل: الشرح، والاستقراء، والقياس، والاستدلال، والتعارض، والجدل، والتطابق، ... ويقوم الحجاج كذلك على الجدل المبني على الأطروحة ونقيضها وتركيبها، واستعمال أنواع من الأدلة كالأدلة المنطقية، وأدلة والواقع والتجربة، وأدلة الاستشهاد والتضمين والاقتباس وأدلة المقايسة والمماثلة " 45

«قَالَ الْعُلَمَاءُ: قَدِ اشْتَمَلَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْبَرَاهِينِ وَالْأَدِلَّةِ وَمَا مِنْ بُرْهَانٍ وَدَلَالَةٍ وَتَقْسِيمٍ وَتَحْذِيرٍ يُبْنَى مِنْ كُلِّيَّاتِ الْمَعْلُومَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ إِلَّا وَكِتَابُ اللَّهِ قَدْ نَطَقَ بِهِ لَكِنْ أَوْرَدَهُ على عادة الْعَرَبِ دُونَ دَقَائِقِ طُرُقِ الْمُتَكَلِّمِينَ»46

وهذا ما قال به صاحب البرهان "عْلَمْ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ قَدِ اشْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْبَرَاهِينِ وَالْأَدِلَّةِ وَمَا مِنْ بُرْهَانٍ وَدَلَالَةٍ وَتَقْسِيمٍ وَتَحْدِيدِ شَيْءٍ مِنْ كُلِّيَّاتِ الْمَعْلُومَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ إِلَّا وَكِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ نَطَقَ بِهِ لَكِنْ أَوْرَدَهُ تَعَالَى عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ دُونَ دَقَائِقِ طُرُقِ أَحْكَامِ الْمُتَكَلِّمِينَ ... فَأَخْرَجَ تَعَالَى مُخَاطَبَاتِهِ فِي مُحَاجَّةِ خَلْقِهِ فِي أَجَلِّ صُورَةٍ تَشْتَمِلُ عَلَى أَدَقِّ دَقِيقٍ لِتَفْهَمَ الْعَامَّةُ مِنْ جَلِيلِهَا مَا يُقْنِعُهُمْ وَيُلْزِمُهُمُ الْحُجَّةَ وَتَفْهَمُ الْخَوَاصُّ مِنْ أَثْنَائِهَا مَا يُوفَّى على ما أدركه فهم الخطباء"47

السورة من أولها لآخرها بسط لدلالات في الموجودات؛ حيث قال تعالى: إنَّما يستجيب الذين يسمعون ... ثُمَّ جاء بقصة إبراهيم عليه السلام دليل على هؤلاء الذين جعلهم الله متيقظين يستجيبون مِنْ أول وهلة، فهذا حال مَنْ علتْ درجته مِنْ الذين يسمعون. ثُمّ قال تعالى بعد ذلك: والموتى يبعثهم الله ... فذكر المنزلة الثانية الذين تيقظوا بعد غفلة فلم يستمروا على ضلالهم. ثم ذكر الصنف الثالث في آية أخرى وبين مصيرهم وأقام الحجة عليهم بسماعهم وعدم استجابتهم.

فجاءت الآية 122 تبيّن الصنفين الأخيرين؛ قال تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 122]. وساق الأدلة على أنَّ هذا الصنف الأخير لنْ يستيقظ مهما كثرتْ الدلائل. قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [الأنعام: 111] 48

"ولما تضمنت هذه السورة الكريمة مِنْ بسط الاعتبار وإبداء وجهات النظر ما إذا تأمّله المتأمّل علم أنَّ حُجّة الله قائمة على العباد، وأنّ إرساله الرسل رحمة ونعمة وفضل وإحسان، وإذا كانت الدلالات مبسوطة والموجودات شاهدة مفصحة، ودلالة النظر من سمع وإبصار وأفئدة موجودة، فكيف يتوقف عاقل في عظيم رحمته تعالى بإرسال الرسل، فتأكّدتْ الحُجّة وتعاضدتْ البراهين. فلما عرف الخلق بقيام الحُجّة عليهم بطريقي الإصغاء إلى الداعي والاعتبار بالصنعة قال الله تعالى: "قل فلله الحُجّة البالغة" (آية 149)" 49

جاءت الأدلة التي تبيّن صدق الرسول ﷺ متعددة بعضها حسّي يدرك بالحواس، ولكن يتغافل المشركين عنه، وبعضها غير حسّي خصّ به الرسول ﷺ؛ مِنْ ذلك:

1/ قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [الأنعام: 56] وقالَ {قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً} وقال بعضهم {ضَلَلْتُ} وهما لغتان. من قال "ضَلِلْتُ" قال "تَضَلُّ" ومن قال "ضَلَلْتُ" قال "تَضِلُّ" ونقرأ بالمفتوحة*.

فتلك مِنْ الحِجج التي صدع بها الرسول ﷺ أمام المشركين وغيرهم؛ فهو لا يعبد غير الله ولا يجاري أهل الباطل، فقل لهم أنّ الله نهاني عن ذلك فهذا دليل، ولأهل قريش أنْ يدركوه لأنَّهم لمسوا فيه ﷺ صفات لا تشبهم قبل أنْ يوحى إليه.

2/ منها أيضاً قوله تعالى: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [الأنعام: 59]

فهذا دليل يبيّن مَنْ الذي ينهاه الله ويأمره؟ فتلك أدلة غير حسية. وتتوالى مثل تلك الأدلة في السورة.

3/ قال تعالى: {قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَاذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأنعام: 63]

وقال {تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً} وقال في موضع آخر {وَخِيفَةً}. و"الخُفْيَةُ": الإخفاء و"الخِيفَةُ" من الخَوْف والرَّهْبَة.

أمّا مِنْ الأدلّة الحسّية التي وردتْ في السورة؛ منها:

1/ قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأنعام: 60]. أي يُنيمُكم فيه على استعارة التوفّي مِنْ الإماتة للإنامة لما بين الموتِ والنومِ مِنْ المشاركة في زوال الإحساس والتمييز. وعطف جملة {وهو الذي يتوفَّاكم} على جملة {وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها} [الأنعام: 59] انتقالاً مِنْ بيان سعة علمه إلى بيان عظيم قدرته؛ لأنّ ذلك كلَّه مِنْ دلائل الإلهية تعليماً لأوليائه ونعياً على المشركين أعدائه. وقد جرتْ عادة القرآن بذكر دلائل الوحدانية في أنفس الناس عقب ذكر دلائلها في الآفاق؛ فجمع ذلك هنا على وجه بديع مؤذن بتعليم صفاته في ضمن دليل وحدانيته، وفي هذا تقريب للبعث بعد الموت. 50

{قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: 71]

والاستفهام إنكار وتأييس، وجيء - بنون المتكلم ومعه غيره - لأنَّ الكلام مِنْ الرسول ﷺ عن نفسه وعن المسلمين كلّهم. و(مِنْ دون الله) متعلق ب (ندعوا)، والمراد بما لا ينفع ولا يضرّ؛ وهي الأصنام، فإنّها حجارة مشاهد عدم نفعها وعجزها عن الضرّ، ولو كانت تستطيع الضرّ لأضرّتْ بالمسلمين لأنَّهم خلعوا عبادتها وسفهوا أتباعها وأعلنوا حقارتها، فلمّا جعلوا عدم النفع ولا الضرّ علّة لنفي عبادة الأصنام فقد كنّوا بذلك عن عبادتهم النافع الضار وهو الله سبحانه.51

ومزج بين الأدلّة الحسّية وغير الحسّية من ذلك:

1/ قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}. فبيّن لنا أيضاً مَنْ الله؟ والجميع يرى السماء ويسير على الأرض؛ فمَنْ الذي خلقهما؟ ثُمّ تتوالى الآيات غير الحسّية في تعداد صفات الله سبحانه وتعالى.

2/ من الآيات الكونية التي حوتها السورة في جانب الأدلّة الحسّية الممزوجة أيضاً؛ قوله تعالى: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذلك تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [الأنعام: 96] وقال {فَالِقُ الإِصْبَاحِ} جعله مصدراً مِنْ "أَصْبَحَ". وبعضهم يقول {فالِقُ الأَصْباحِ} جمع "الصُّبْح". وقال {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً} أي: بِحِسابٍ. فهي تأكيد لما ورد في الآية السابقة مِنْ صفات الله سبحانه وتعالى. 52

ثم يلفت نظرهم إلى خلق الإنسان؛ دليل آخر مِنْ الأدلّة الحسّية التي ذكرتها الكتب السابقة، وهي قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} [الأنعام: 98]

وقال {أَنْشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ} فنراه يعنى: فمنها (مُسْتَقِرٌّ) ومنها (مُسْتَوْدَعٌ) والله أعلم. كما يلفتْ نظرهم أيضاً إلى دليل حسّي آخر يوجد على الأرض، يلمسونه في إنبات النبات في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[الأنعام: 99]

وقال {فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً} يريد "الأَخْضَرَ"، وقال {وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} ثُمّ قال {وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ} أي: "وَأَخْرَجْنا بِهِ جَنّاتٍ مِنْ أَعنابٍ". ثُمّ قال {وَالزَّيْتُونَ} وواحد: "القِنْوانِ": قِنْوٌ، وكذلك "الصِّنْوانُ" واحدها: صِنْوٌ؛ فهذا الاختلاف في تلك النبات رغم أنّها تسقى بماء واحد، وتنبت على نفس الأرض.

ومِنْ الأدلّة الحسّية الواضحة أيضاً قوله تعالى: {وَهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [الأنعام: 92].

من هنا كان هذا التنوعُ العجيبُ في عرض الحجج والبراهين التي تناسب جميع العقول وتتواكب مع سائر العصور والأجيال. 53

2/ الغاية والنتائج التي توصل إليها الاحتجاج.

جاء في شرح النص الاستدلالي؛ هو ما كانت عناصره مقترنة بعلاقات استدلالية ... فقد يكون النص الاستدلالي من الصنف التدرجي الذي تسبق فيه المقدمات النتيجة أو الصنف التقهقري الذي تأتي فيه النتيجة قبل بيان المقدمات. وقد يكون مِنْ الصنف الإظهاري إذا ذكرتْ جميع الصور المنطقية التي تدخل في بنائه، أو مِنْ الصنف الإضماري إذا طويت بعض هذه الصور واحتيج إلى ذكرها لتمام بنيته الاستدلالية. كما يكون مِنْ الصنف البرهاني إذا كانت علاقاته قابلة للحساب الآلي أو مِنْ الصنف الحجاجي إذا كانت هذه العلاقات تأبى الخضوع لمثل هذا الحساب الصوري. 54

فإذا نظرنا في سورة الأنعام نجد آيات تبيّن لنا النتيجة التي سوف تكون في نهاية هذا الاحتجاج، وهي بمثابة تسلية للرسول ﷺ حتّى لا يرهق نفسه ويحمل نفسه فوق طاقتها؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [الأنعام: 34]. وقال {وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ} كما تقول: "قَدْ أَصَابَنا مِنْ مَطَرٍ" و"قَدْ كانَ مِنْ حَديث".

{وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [الأنعام: 35]. وقال {نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَآءِ} فـ"النَفَقُ" ليس من "النَفقَةِ" ولكنه من "النَّافِقاءِ"، يريد دخولاً في الأرض. وقال {فَإِن اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَآءِ} ولم يقل "فَافْعَلْ" وذلك أَنَّهُ أَضمر. وقال الشاعر: [من الخفيف]:

فَبِحَظٍّ مِمّا نَعِيشُ ولا تَذْ * هَبْ بِكِ التُّرَّهاتِ في الأَهْوالِ55

فلن يكون حظك مِنْ دعوة هؤلاء المعاندين بأفضل مِنْ حظّ الأنبياء السابقين؛ فيلزمك الصبر والمثابرة بما هو في مقدورك، قال تعالى: - في غير هذه السورة - {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ} [البقرة: 272]. ومن النتائج أيضاً قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ولكنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [الأنعام: 111]. قال {وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً} أيْ: قَبِيلاً قَبِيلا، جماعة "القَبيل" "القُبُل". ويقال "قِبَلا" أي: عِيانا. وقال {أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً} أي: عِيانا. وتقول: "لا قِبَلَ لي بهذا" أي: لا طَاقَةَ. وتقول: "لِي قِبَلَك حقٌ" أي: عندَك. فالآية تبين أنه مهما أنزل الله مِنْ معجزات، وجئت بشواهد وأدلة وبراهين؛ فموقفهم لنْ يتغير. فنلحظ في تلك النتائج أنّها من النوع التدرجي. 56

فبيّنت لنا الآيات السابقة أنّ هؤلاء المتلقين لخطاب الرسول ﷺ الذي جاءهم مِنْ الله سبحانه وتعالى بأدلة واضحة؛ لن يقتنعوا. وترتب على هذا التعنّت أنْ حكم الله على مصيرهم في الدار الآخرة. ففيه توجيه بعدم الاستمرار في الحجاج والجدل إنْ ظهر التعنت وعدم الفائدة؛ فغايتهما الإقناع وإلّا لزم التوقف والله اعلم.

الخاتمة:

وبعد هذا العرض للجدل والحجاج في سورة الأنعام توصلنا للنتائج التالية:

1/ ذكر الجدل والحجاج لفظاً وضمناً في السورة فيه إشارة لما تحويه الآيات منهما.

2/ الجمع بين اللفظتين فيه ترجيح لآراء القدماء على أنّهما بمعنى واحد، أو يمكن أنْ تحل اللفظة محل الأخرى.

3/ اختصت السورة بالتنوع والشمول؛ فجاء المصطلح، وتعريفه، وأنواعه، ومجالاته، وأدلته، ونتائجه.

4/ خطاب القرآن موجّه للعامة الناس؛ لأنَّ رسالة الرسول ﷺ هي الخاتمة؛ فلهذا نلحظ في الآيات الاهتمام بالمتلقي الذي وجّه الخطاب إليه.

5/ من قبيل التنوع الذي لازم السورة وجدنا التداول الموسوم وغير الموسوم.

6/ تنوعت الأدلة بين الحسية والمعنوية والمزج بينهما، جاءت النتائج في السورة مِنْ النوع التدرجي.

الهوامش:

1/ لسان العرب – ابن منظور (1/ 571)

2/ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير - أحمد بن محمد الفيومي (1/ 93)

3/ القاموس المحيط – الفيروز آبادي (976)

4/ مجمع بحار الأنوار - جمال الدين محمد طاهر (1/ 332)

5/ البيان والتبيين - الجاحظ (1/ 58)

6/ لسان العرب – ابن منظور (2/ 779)

7/ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (1/ 121) القاموس المحيط (183)

8/ الحجاج في القرآن الكريم – د. عبد الله صولة (11)

9/ نظريات الحجاج ـ د. جميل حمداوي (2)

10/ ترجمة معاني القرآن الكريم بين نظريتين الدلالية والتداولية – د. عبد الرحمن الجمهور (2)

11/ أسرار ترتيب السور ـ السيوطي (97- 101)

12/ تفسير القرطبي (6/ 383)

13/ الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام – د. أحمد محمد شرقاوي (49)

14/ تفسير القرطبي (6/ 405)

15/ تفسير القرطبي (6/ 404)

16/ التحليل التداولي، الأفق النظري والإجراء التطبيقي في الجهود التعريفية العربية - هاجر متقن (126)

17/ الحجاج في القرآن الكريم – د. عبد الله صولة (154)

18/ أسرار ترتيب السور ـ السيوطي (97- 101)

19/ الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي (7/ 29)

20/ التحليل التداولي، الأفق النظري والإجراء التطبيقي في الجهود التعريفية العربية - هاجر متقن (126)

21/ الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي (7/ 30)

22/ الحجاج في القرآن الكريم – د. عبد الله صولة (154)

23/ الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي (7/ 128)

24/ التحليل التداولي، الأفق النظري والإجراء التطبيقي في الجهود التعريفية العربية - هاجر متقن (126)

25/ تفسير القرطبي (6/ 389)

26/ معاني القرآن للأخفش (1/ 293)

27/ تفسير القرطبي (6/ 391)

28/ معاني القرآن للأخفش (1/ 294)

29/ معاني القرآن للأخفش (1/ 316 - 317)

30/ الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي (7/ 129)

31/ معاني القرآن للأخفش (1/ 297)

32/ لقاء رمضان.. سورة الأنعام - المغامسي (12)

33/ الحاوي في تفسير القرآن الكريم - عبد الرحمن بن محمد القماش (287/ 371)

34/ تفسير القرطبي (6/ 395)

35/ تفسير القرطبي (6/ 394)

36/ الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام – د. أحمد محمد شرقاوي (50)

37/ الإتقان في علوم القرآن – السيوطي (4/ 63)

38/ معاني القرآن للأخفش (1/ 300)

39/ التحرير والتنوير - ابن عاشور (7/ 215)

40/ معاني القرآن للأخفش (1/ 299)

41/ التحرير والتنوير - ابن عاشور (7/ 224)

42/ معاني القرآن للأخفش (1/ 302)

43/ تفسير القرطبي (6/ 396)

44/ أوضح التفاسير - محمد عبد اللطيف بن الخطيب (1/ 162)

45/ نظريات الحجاج ـ د. جميل حمداوي (7)

46/ الإتقان في علوم القرآن- السيوطي (4/ 60)

47/ البرهان في علوم القرآن - الزركشي (2/ 25)

48/ الحاوي في تفسير القرآن الكريم - عبد الرحمن بن محمد القماش (287/ 152)

49/ البرهان في تناسب سور القرآن ـ الغرناطي (203- 210)

50/ التحرير والتنوير ـ ابن عاشور (7/ 275)

51/ التحرير والتنوير - ابن عاشور (7/ 300)

52/ معاني القرآن للأخفش (1/ 307)

53/ الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام – د. أحمد محمد شرقاوي (50)

54/ في أصول الحوار وتجديد علم الكلام – د. طه عبد الرحمن (36)

55/ معاني القرآن للأخفش (1/ 298)

56/ معاني القرآن للأخفش (1/ 310)

المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم. رواية حفص عن عاصم

2- الإتقان في علوم القرآن – عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (911هـ) – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر- 1974م – ج4

3- أسرار ترتيب السور ـ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (911هـ) – تحقيق أحمد عطا – دار الفضيلة للنشر والتوزيع بالقاهرة – 2002م

4- أوضح التفاسير – محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب (1402هـ) – المطبعة المصرية – ط6 – 1964م

5- البرهان في تناسب سور القرآن ـ أحمد بن إبراهيم الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (708هـ) – تحقيق محمد شعباني – وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – المغرب – 1990م

6- البرهان في علوم القرآن – أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (794هـ) – تحقيق مجمد أبو الفصل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية – مصر – ط1 – 1957م – ج2

7- البيان والتبيين – عمر بن بحر، أبو عثمان الجاحظ (255) – دار ومكتبة الهلال – بيروت – 1423هـ - ج1

8- التحرير والتنوير ـ محمد الطاهر ابن عاشور – الدار التونسية للنشر – تونس – 1984م - ج6

9- التحليل التداولي، الأفق النظري والإجراء التطبيقي في الجهود التعريفية العربية – أ. هاجر متقن - مجلة الأثر – جامعة قاصدي مرباح – ورقلة - الجزائر– 30- 6-2011م

10- التداولية عند العلماء العرب – د. مسعود صحراوي - دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الأولى – 2005م

11- ترجمة معاني القرآن الكريم بين نظريتين الدلالية والتداولية – د. عبد الرحمن الجهور – المكتبة الإسلامية الإلكترونية الشاملة – 29-10-2015م - (ص: 2)

12- تفسير ابن كثير ـ أبو الفداء إسماعيل بن عمر قرشي الدمشقي (774هـ) – تحقيق سامي بن محمد السلامة – دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض – السعودية – ط2 – 1999م - ج3

13- تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (310هـ) – تحقيق محمود محمد شاكر – دار التربية والتراث – مكة المكرمة – بدون تاريخ نشر – ج11

14- تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن – أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي – تحقيق أحمد البردوني – دار الكتب المصرية – القاهرة – ط2 – 1964م – ج6، ج7

15- الحاوي في تفسير القرآن الكريم – عبد الرحمن بن محمد القماش – جامع الكتب الإسلامية - ط2- 2019م - (287/ 155)

16- الحجاج في القرآن الكريم - عبد الله صولة – دار الفارابي – بيروت – ط1 – 2001م - ص129وص117-118

17- الحوار القرآني في ضوء سورة الأنعام – أحمد محمد شرقاوي – جامعة الشارقة – 2007م - (ص: 49 - 50)

18- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام – د. طه عبد الرحمن – المركز الثقافي العربي – المغرب – ط1– 1986م – ص37- 38

19- القاموس المحيط – مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (817هـ) – تحقيق بإشراف محمد نعيم العرقسوسي – مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان – ط8 – 2005م

20- لسان العرب – محمد بن مكرم، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور (711هـ) دار صادر – بيروت – ط3 – 1414 هـ

21- لقاء رمضان.. سورة الأنعام – صالح بن عوّاد المغامسي – وقفية الأمير غازي للفكر القرآني - 2019م

22- مجمع بحار الأنوار – جمال الدين محمد طاهر بن علي الكجراتي (986هـ) – مطبعة دار المعرف العثمانية – ط3- 1967م – ج1

23- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير – أحمد بن محمد الفيومي، أبو العباس(770هـ) – المكتبة العلمية – بيروت – بدون تاريخ

24- معاني القرآن للأخفش – أبو الحسن المعروف بالأخفش الأوسط (215هـ) – تحقيق الدكتورة هدى محمد قراعه – مكتبة الخانجي – القاهرة – مصر – ط1 – 1990م – ج1

25- نظريات الحجاج ـ د. جميل حمداوي ـ شبكة الألوكة – بدون تاريخ